شعريات التناص في الخطاب الروائي الليبي المعاصر
دراسة لنص رواية: نزيف الحجر"لابراهيم الكوني"

د/سليم بركان

جامعة سطيف – الجزائر

مقدمة:

تعد ظاهرة التناص في النصوص الأدبية من الشعريات الأدبية التي دأب المبدعون على تمثلها في إبداعاتهم الأدبية عموما والروائية على الخصوص من أجل خلق فنية فذّة وشعريات متميزة ،و بالمقابل فقد عدّها النقاد من الجماليات النّصية التي تعطي للنص جمالية فكرية وأخرى أدبية ، فظاهرة التناص تتجلى على سطح النص ومن ثم تتأكد شعرية نصيته على المستوى الشكلي كما على المستوى الفكري، لذلك فإن":تداخل النصوص وترابطها يشكل سمة فنية مرتبطة بكل كلام كيف ما كان نوعه أو جنسه"[1]ومن ثم سيكون هذا التكوين التناصي السردي الفني مدخلا لنتلمس من خلاله شعريات التناص في نص خطاب الرواية الليبية المعاصرة من منطلق أن نصوص سرد"ابراهيم الكوني"هي بالأحرى نصوص ملحمية فكروية بامتياز أو كما اعتبرها–الطاهر وطار":كتبت على أصول الملحمة الإغرقية بلغة عربية فصيحة جدا،وشاعرية يختص في الكتابة على الطوارق وجعل من فضاء الصحراء حاجة ماسة كلما غيرنا اتجاهنا تلقي بضيائها الساحر بشكل خاص"[2]،بمعنى أن نصوصه الروائية حبلى بالتوظيف الأسطوري،المجتمعي، التاريخي البارزة ومن ثم فقد تشكلت تكوينية تناصية في نصوص سرد"الكوني"من عناصر تراثية وتاريخية ودينية وغيرها مما بدا من خلالها المبدع

[1] عبدالقادر بقشي.التناص في الخطاب النقدي و البلاغي.إفريقيا الشرق.ط1.المغرب.2007.ص:49

[2] عبد القادر الفيتوري.أعلام من ليبيا.-الكوني-الجزيرة-2008-

ملهما بها،بحيث خلق لغة سردية جديدة بواسطة الخيال السردي الذي من خصائصه الهدم وإعادة البناء من جديد.

و بناء عليه تبدو النصوص السردية الليبية المعاصرة قائمة على مختلف التفاعلات النصية سواء أكانت جزئية أم كلية ،هذا ما خلق التحاما بين الأسطوري المسلح بالتراثي والسردي القائم على الخيالي الأدبي ،وفي ظل هذا التشكل للتفاعلات النصية للأعمال السردية الليبية المعاصرة تجلت شعرية أدبية للعناصر السردية المتمفصلة في ثنايا النصوص الليبية المعاصرة وبخاصة في نصوص"الكوني" و وفق هذا التصور التناصي سنحاول تأويل نص رواية "نزيف الحجر" من خلال الكشف عن شعريات بعض أشكال التفاعل النصي البارزة في ثنايا نص الرواية التي هي في الأصل نصوص غائبة /حاضرة ضمن عمليات التشكيل الفني والفكري النصي لها،لذلك وفي جانب آخر تبدو النصوص السردية الليبية المعاصرة في حوارية نصية وأسلوبية وبارودية ،تؤطر في الوقت نفسه لبنية فكرية وتراثية ذات طبيعة أسطورية ،أي أنها تمثل نصوصَ مواقف ومعنى وتاريخا وثقافة وحضارة ،ومن ثم يبقى فعل التفاعل النصي في نص الرواية الليبية يمثل بنية قائمة بنفسها ،بمعنى آخر أنه يعكس في النهاية الهوية التاريخية والإجتماعية و الثقافية العربية الإسلامية للمجتمع الليبي ،ذلك أن بعض الأصوات من هنا وهناك تريد بطريقة أو بأخرى طمس هذه الهوية الليبية.

وحتى نلج باب التمثيل الإجرائي النصي من أجل الكشف عن شعرية التمفصلات التناصية في نص رواية"نزيف الحجر"كأنموذج للدراسة،حري بنا أن نشير إلى بعض الأطر المفهومية الإجرائية التي نؤسس من خلالها مسارات القراءة من أجل الكشف عن شعرية التناص في النص السردي الليبي المعاصر ممثلا بنص رواية"نزيف الحجر"لـ:ابراهيم الكوني"و هذا من خلال:

*معرفة هويته،بمعنى فهم ما طرأ عليه من تحولات جديدة و الخاصة بالنص الروائي الليبي المعاصر.

*دمج مختلف التحولات الفكرية والاجتماعية والأدبية الجديدة التي أسندت كدلالات في النص الروائي الليبي المعاصر.

أولا:تمفصلات التناص في النص الروائي الليبي المعاصر:

يمكن التأسيس لأرضية مفهومية إجرائية نستطيع من خلالها استجلاء بنية التناص كآلية حوارية في تشكل الشعريات التناصية للنص الليبي الروائي المعاصر الحاضر ضمن حوار مستمر مع نصوص غائبة/حاضرة، ومن ثم فإن شعرية الحوار النصي لا تتكشف إلا من خلال فعل الحوار السردي الذي ينهض بين النص والقاريء، هذا الأخير الذي يكوّن معنى، ومن ثم الكشف عن مواطن الشعرية التناصية في نص الرواية.

إن التفاعل النصي الذي يبدو قائما بين النص الروائي الليبي المعاصر بمختلف عناصره، جعل من نص "الكوني" ينهض على تراث سردي أسطوري بامتياز قائم على النهل من العناصر الخرافية التراثية والتاريخية ومن ثم تبدو طبيعة التناص في نصه قائمة على تشكيلات ملفوظية وتلفظية:دينية تراثية بارزة اعتمدها "الكوني" في تشكيله السردي وهذا من أجل التأكيد على الهوية الإسلامية العربية و الوطنية الليبية التي يسعى الآخر إلى طمسها بطريقة أم بأخرى ،لذلك فإنّ هذه التوظيفات لهذه العناصر التناصية التي أشرنا إليها يمكن اعتبارها العتبة الأولى التي ننطلق منها من أجل الكشف عن شعريات التناص في نص"نزيف الحجر"،لذلك فقد تنوعت أشكال هذا التفاعل النصي من توظيف مباشرو غير مباشر للعناصر التراثية وغير التراثية التي حفل بها نص الرواية.

ثانيا/الإطار المضموني لنص رواية"نزيف الحجر"لابراهيم الكوني:

صدرت رواية–نزيف الحجر–للكاتب والمفكر"ابراهيم الكوني"عن دار التنوير للطباعة والنشر–لبنان–في طبعتها الثالثة،سنة1992[1]يعدّ من الأقلام السردية

[1] ابراهيم الكوني.نزيف الحجر.دار التنوير للطباعة والنشر.ط3.بيروت.1992.

الليبية التي تكتب بقوة عن موضوعات الصحراء وفق سرديات أسطورية فذة ذلك أنه استطاع فتح فضاء الصحراء أسطوريا وتاريخيا وتراثيا على غرار الفضاءات الجغرافية الأخرى التي أصبحت ربما–حسبه– عوالم مستهلكة إلى حد ما،من أجل ذلك:وقف "الكوني" بجدارة كاسم شامخ في خارطة الإبداع الروائي الليبي،حيث يقدم لحظة روائية هامة أعطت دفعا جديدا للشكل الروائي العربي،فما أنجزه بشهادة النقاد العرب إضافة إلى للرواية العربية لا تتكر، لأنه ارتاد مناطق غير مألوفة على الرواية العربية التي انحصرت مواضيعها بين–الريف والمدينة– فجاء الكوني وانتقل إلى عالم الصحراء بتراثه الأسطوري العجائبي."[1]لذلك فإن تشكيل الرواية السردي جاء مستنسخا كما أن مادة حكائيتها تشكلت بفعل العلاقة التي قامت بين الشخصيات المحورية–أسوف والودان–وعلى هذا الأساس جاءت أحداثها متتابعة من خلال الصراع الأزلي الذي عاشته وتعيشه البشرية إلى يومنا هذا وكذا مع الطبيعة القاسية التي تشكلت من خلالها أحداث الرواية،إنها باختصار حكاية الوجود والعدم،بحيث عمل"الكوني"على تحوير علاقات الصراع ومن ثم توجيهها عبر سياق علاقتين جوهرتين هما:علاقة–أسوف مع الودان–وكيف يحل–الودان–محله بحيث يصبح أخا بالدم بعد موت الأب،أما العلاقة الثانية فتتمثل في حكاية–أسوف–مع قبيل–آكل اللحم النيء الذي شرب من دم الغزالة ليعيش بعد موت أبويه سفاكا للدماء ومن تسترجع الرواية صدى حكاية–قابيل وهابيل–التي تمثل بدورها الصراع الأول بين بني البشر، ولعل هذا ما حاول أن يجسده–الكوني– في نصه العجيب الغريب ،بحيث شكله بلوحات فسيفسائية تاريخية ودينية وأسطورية وثقافية وغيرها من العناصر التناصية التي تلون بها نص الرواية.

ثالثا/شعرية التناص التاريخي في نص الرواية:

تعتبر العناصر التاريخية من أهم العناصر التي يستعين بها المبدع في تشكيل نصوصه الإبداعية لذلك تبقى المادة التاريخية تشكل رصيدا معرفيا وجماليا بل وثراء دلاليا للروائي، ذلك أنه يستثمر كل المعطيات التاريخية من أجل التعبير عن مختلف القضايا الراهنة التي تعيشها البشرية من هموم وأفراح وبخاصة القضايا التي لها علاقة مباشرة بالبيئة والقومية والتاريخ

[1] عبد القادر الفيتوري.أعلام من ليبيا.الجزيرة-2008

والثقافة والحضارة التي يعيش فيها المبدع، لذلك تصبح الأحداث التاريخية المستحضرة في النص أكثر حضورا في وجدان القارئ–طبعا–بما تحمله من قيم معرفية و روحية وفنية تاريخية والذي نشير إليه بالتناص التاريخي:الذي يتشكل من خلال تداخل نصوص تاريخية مختارة ومنتقاة مع النص الأصلي للرواية قد تبدو مناسبة ومنسجمة لدى المؤلف مع السياق الروائي أو الحدث الروائي الذي يرصده ويسرده وتؤدي غرضا فكريا أو فنيا أو كليهما معا"[1]لذلك يمكن التأكيد على التناصات التاريخية التي حَبَلَ بها نص الرواية سواء من شخصيات أو من أحداث تمفصلت في خطاب النص من ذلك استحضار الحياة المجتمعية للطوارق في الصحراء وإبراز مجريات حياتهم الثقافية والحضارية والجغرافية الطبيعية من ذلك الحيوان الأسطوري–الودان–الموفلون–وهو ما كما جاء على قول السارد:"...الصخرة العظيمة تحدّ سلسلة الكهوف، وتقف في النهاية كحجر الزاوية،لتواجه الشمس القاسية عبر آلاف السنين،وقد زينت بأبدع رسوم إنسان ما قبل التاريخ في الصحراء الكبرى كلها على طول الصخرة الهائلة ينهض الكاهن العملاق، يخفي وجهه بذلك القناع الخاص ويلامس بيده اليمنى الودان.."[2]،هذا بالإضافة إلى الكهوف والرسومات التي تحمل هي الأخرى رمزية تاريخية بامتياز ،من ذلك ما جاء على قول السارد:"..هذه الصخور ثروة كبيرة هذه الرسوم مفخرة بلادنا افتح عينيك إنهم ناهمون وطماعون يسرقون أحجارنا ليبيعوها في بلدهم بآلاف الملايين"[3]، كما تمفصل في نص الرواية خطاب البطولة التاريخية لأبطال الرواية مما جعله يستحضر أكبر مأساة عرفتها البشرية وهي حادثة–قابيل وهابيل–يقول السارد:"..لوح قابيل بالسلاح في الهواء مهددا،فتراجع مسعود ...تسلق الصخرة من الناحية الأفقية ضحك في وجه الشمس بوحشية ثم انحنى فوق رأس الراعي المعلق أمسك به من لحيته وجرَ على رقبته السكين بحركة خبيرة...خبرة كل من ذبح قطعان الغزلان في الحمادة الحمراء لم يصرخ أسوف ولم يعترض ولكن مسعودا هو الذي صرخ فتردد صدى الصرخة في القمم المجاورة .."[4]كل هذا يشير إلى أن نص الرواية كشف عن تطابق بين الجريمتين في–الكتاب المقدس كما في الرواية، إلا أن الروائي أضاف إلى هذه

[1] أحمد الزعبي.التناص نظري وتطبيقيا.مؤسسة للطبع والنشرط2.عمان.2000.ص:29

[2] ابراهيم الكوني.نزيف الحجر.ص:8

[3] الرواية.ص:14

[4] الرواية.ص:146

الشخصية شيئا من خياله فطّعمه بالعجائبية، ولهذا لا يوجد انفصال في توظيف هذه الشخصية في الرواية أو في التاريخ، على الرغم من أن"الكوني"قد استعار الجريمة الأولى بكل تفاصيلها وجعل منها المرجع الأول لبناء روايته، إلا أنه عمل على إدخال ما يساعده هو على الكتابة وما يخدمه في بناء هيكل سردي متين من خلال إضافته على الجريمة الأولى التي ارتكبها قابيل في حق أسوف جريمة أخرى لا تقلّ بشاعة عن الأولى وهي الجرائم التي ترتكب في حق الصحراء والغزلان والعباد يقول السارد:...يقولون إنكم كل قطعان الغزلان في الحمادة الحمراء هل هذا صحيح؟ها..ها. تعال،اسمع ما يقول:أفخر أنني أنا الذي أكلت آخر غزالة في صحراء الشمال"..[1] ،مما يعني أن خطاب أسوف جاء موجها إلى قابيل وصديقه مسعود في إشارة من الكوني إلى بشاعة ما يرتكب في حق الطبيعة الصحراوية من قبل هذا المجرم المتعجرف والمفاخر والمجاهر بجرائمه الجشعة ،كل هذا جعل الكوني يضيف الكثير من الحقائق معتقدا أن التاريخ الرسمي لم يشر إلى هذه الحقائق سواء من بعيد أو قريب، وعلى هذا الأساس جاءت هذه التناصات التاريخية مجسدة مكانيا وزمانيا وسرديا من خلال الغزو الإيطالي للوطن العزيز ليبيا، وكذا الحملة العسكرية على أثيوبيا، حيث كشف خطاب الرواية عن الشخصية البشعة التي قادت هذه الحملة العسكرية من خلال تجنيد خيرة شباب ليبيا، يقول السارد:.."جون باركر كابتن بقاعدة–هويليس–منتدب للعمل بمعسكر يخضع للقاعدة كإقليم على جبل نفوسة في موقع استراتيجي شغف بفلسفات الشرق منذ أن كان طالبا بكلية الاستشراق بجامعة كاليفورنيا قرأ الزرداشية والبوذية والصوفية الاسلامية.."[2]بحيث تجلى خطاب التناص من خلال الكشف عن الوجه الآخر للمستعمر الذي يلم بكل صغيرة وكبيرة الخاصة بالمستعمرة من أجل أن يُحكم سيطرته عليها.

رابعا/ شعرية التناص الأسطوري في نص الرواية:

[1] ابراهيم الكوني.نزيف الحجر.ص:21

[2] الرواية.ص:115

لقد أجمع الكثير من الدارسين على أن الأسطورة تمثل:راوية لتارخ مقدس يخبر عن أحداث وقعت في الزمان الأول قامت بها الآلهة والكائنات الخرقة العظيمة"[1]مما يعني أن الأسطورة حكاية مقدسة تخبرنا عن علاقة الحياة البشرية بالكون وهذا الوجود الإنساني أي أنّ لها ارتباطا وثيقا بالإنسان البدائي الذي حيرته تساؤلات كثيرة فأرجعها إلى قوى ما ورائية متحكمة في هذا الكون،لذلك ولو رجعنا إلى البحث عن مختلف تمفصلاتها التناصية المختلفة في نص الرواية نجد أن لها ارتباطا وثيقا بالشخصيات التي تعيش في البيئات الصحراوية من خلال المرويات الغرائبية التي يتمثلونها في حياتهم اليومية وهذا ما تجلى في اللحظة التي فر فيها–أسوف–من المعسكر الطلياني،يقول السارد:هنا في الطري قبل أن يبلغوا العوينات حدث ما تناقله الأهالي ونسجوا حوله الأساطير،روى لها الشبا فقالوا إنهم رأوا المعجزة لأول مرة في حياتهم ،شاهدوا إنسانا يفلت من الأسر ويتحول إلى ودان،يعدو نحو الجبل يتقافز فوق الصخور في سرعة الريح غير عابئ بمطر الرصاص الذي ينهال عليه من كل جانب فهل رأيتم إنسانا يتحول إلى ودان؟هل رأيتم إنسانا ينجو من رصاص الطليان وهو يجري على قدمين حتى يختفي في ظلمات الجبال؟"[2] فهذه المرويات الأسطورية لا يغفل عنها الرجل الطرقي الصحراوي بحيث يعيرها اهتماما كبيرا، لكن وإن تغافل عنها فإن ذلك يشير إلى حدوث نازلة بأهله ومن ثم حياة الشقاء التي تتحقق في مجريات حياتهم، من أجل ذلك يسعى خطاب نص الرواية إلى استكشاف مختلف المريات والمعتقدات الروحية التي كان يؤمن بها أفراد وجماعات المجتمع الليبي القدماء،حيث تركوا رسومات وآثارا أسطورية مقدسة منقوشة على الصخور أشار إليها نص الرواية مباشرة يقول السارد:الصخرة العظيمة تحد سلسلة الكهوف وتقف في النهاية كحجر الزاوية لتواجه الشمس القاسية آلاف السنين وقد زينت بأبدع رسوم إنسان ما قبل التاريخ والصحراء الكبرى كلها على طول الصخرة الهائلة ينهض الكاهن العملاق يخفي وجهه بذلك القناع الغامض ويلامس بيده اليمنى الودان الذي يقف بجواره مهيبا عنيدا"[3]مما يعني في جانب آخر أن الأسطورة الأدبية قد ساهمت وبشكل كبير في ترسيخ الكثير من المعتقدات مانحة إياها

[1] ميرسيا إيلياد.الأساطير والاحلام.تر:حسيبة كاسوحة.د.ط.منشورات سوريا.2004.ص:07
[2] الرواية.ص:83
[3]:ابراهيم الكوني.نزيف الحجر.ص: 8

السلطة والسيطرة داخل المجتمع مضيفة عليها صبغة القداسة بين الأفراد والجماعات البشرية مضيفة عليها صبغة القداسة بين الأفراد حيث أصبح:التدين مرتبطا بعوامل الطبيعة وعلاماتها مثل الشمس والنار والريح والأفاعي والمطر والرعد والبرق"[1]ولعل السر في محافظة الأسطورة على قدسيتها وأهميتها الاجتماعية والمجتمعية كونها أفرزت جميع المرجعيات البشرية التي لها علاقة بممارسة الحياة مما تهيأ لها الإجابة عن الكثير من التساؤلات مما تحقق وجودها وصمودها واستمرارها وبخاصة في المجتمعات الصحراوية.

ولعل من التوظيفات التراثية التى حفل بها خطاب نص الرواية هو بعض المأثورات الشعبية التي:تمثل تلك الأقوال المأثورة التي تلخص تجربة أو فكرة فلسفية"[2] ومن ثم فقد تمفصلت بعض الأقوال المأثورة في ثنايا خطاب الرواية منها ما ورد على لسان–قابيل آدم الذي امتهن الصيد واعتاد أكل اللحوم، فلا يستطيع المبيت لليلة واحدة دون أكل اللحم نجاء للصحراء رفقة مسعود الدباشي رغبة منه في صيد الودان الذي هو تيس جبلي انقرض في أوربا منذ بدايات القرن السابع عشر لكنه ظل موجودا في الصحراء الكبرى ،ثمة غموض يحيط بهذا الحيوان،ففي لحمه يكمن سر من أسرار الوجود...اشتكى قابيل كثيرا من حرارة شمس الصحراء،لكنه تحملها من أجل الظفر بهذا الحيوان الأسطوري المسكون بروح الجبال،أخذ يخاطب أسوف الراعي المسالم بنبرة كلها غضب –الجد الجد.اللعب اللعب"[3]مما يعني أنه أراد معرفة مكان تواجد الودان لكن أسوف أبى ذلك ورفض أن يشي بمكانه وحاول بكل ما استطاع أن يخفي عنهما مكانه،لأنه ما لبث إلى أن اعترف لهما بأنه يسكن رؤوس الجبال تحت طائل المضايقات التي تعرض لها من قبلهما،يقول السارد:لا يوجد الودان هنا ثم...ثم أن صيده صعب،صعب...هتف قابيل....الودان لا يعيش إلا في رؤوس الجبال في أوعر الجبال"[4]وهذا في إشارة صريحة من الكوني على تمفصل لثنائيات ضدية في الحياة البشرية من قبيل

---

[1] عبد القادر زيادية.دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب.د.مج.الجزائر.د.ت.ص:86

[2] نبيلة ابراهيم .أشكال التعبير في الأدب الشعبي.دار غريب للطباعة .القاهرة.د.ت.ص:173

[3] ابراهيم الكوني.نزيف الحجر.ص:41

[4] الرواية.ص:42

الخير/الشر،القوي/الضعيف،الجلاد/الضحية وغيرها،أي أن هناك نفوسا جبلت على الأذية والشر وأخرى على الخنوع والاستسلام طوعا أم كرها.

فغاية المبدأ الروائي من توظيفه للمأثورات الشعبية السالفة الذكر هو بيان خطاب البشاعة الذي يورث الإنسان الجبن والخوف من معاشرة البشر بمجرد توهماته الكاذبة فتوسوس له فكرة خطر معاشرة الأفراد كما الجماعات الاجتماعية ذلك أن الإنسان إن لم يواجه مصيره بكل ما يحمله من أسر فلا يستحق لأن يحيا هذه الحياة،هذا بالإضافة إلى التمفصل التناصي الصريح للمأثور الشعبي الأسطوري من قبيل ما جاء على لسان السارد في السخرية التي أثيرت على أسوف من أنه جني يعاشر ويسمع حوارات الجن في الليالي المقمرة وكان ذلك حين اعتقل في أحد السجون الإيطالية-غات-يقول:هذا ما يقال له:راقد الريح يلقي العظم في الكرشة"[1]وهو مأثور شعبي يضرب في سوء الحظ والطالع فمن لا حظ له يجد حتى العظام في بطون الحيوانات وهذا ما حصل مع أسوف حين نزوله مباشرة إلى-غات-بحيث ألقي عليه القبض.وفي اليوم التالي حدث المسخ بحيث تحول أسوف إلى ودان ذلك أنه لا يبقى سرا دفينا في الصحراء يقول السارد:رأوا المعجزة لأول مرة في حياتهم،شاهدوا إنسانا يفلت من الأسر ويتحول إلى ودان،يعدو نحو الجبل يتقافز فوق الصخور في سرعة الريح غير عابئ بمطر الرصاص ..فهل رأيتم إنسانا يتحول إلى ودان"[2] مما يعني أن الحرية هي أغلى ما يملكه الإنسان لكن قد تحدث المعجزات إن نحن آمنا بقدرة الله.

خامسا/شعرية تناص النسق الاجتماعي في نص الرواية:

يجمع الكثير من الدارسين على أن المشاريع السردية لتي اشتغل عليها الكوني قائمة كلها على سرديات مجتمعية موضوعها الجوهري الفضاء الصحراوي،ذلك أنه لا يمكن لقارئ الكوني أن يتغافل عن التناصات السوسيوبيئية التي تتقاطع مع عناصر البيئة الصحراوية،بحيث أنها:تتجلى أكثر في حياة البدو والرحل فحياة البدوي ونشاطه محكومة بشكل

[1]الرواية.ص:83

[2]ابراهيم الكوني.نزيف الحجر.ص:83

ملحوظ يتقلب المواسم والفصول والمناخ والمؤثرات الطبيعية"[1]ومن ثم فإن هناك علاقة وطيدة بين الرجل الصحراوي وبيئته،ذلك أن سرديات الكوني تصور الصحراء على أنها العالم الذي يتناص مع المألوف تارة،والعالم غير المألوف تارة أخرى،وهذا ما تأكد حضوره في نص الرواية من خلال شخصيتي أسوف ووالده اللذين يجدان القوة والحرية والانشراح في البيئة الصحراوية وعلى لسان والد أسوف،يقول:الصحراء كنز مكافأة لمن أراد النجاة من استعباد العبد و أدى العباد فيها الغناء فيها بالمراد"[2]ولكن تغير الحال بعد وفاة والد أسوف،حيث تفاجأ هذا الأخير بسيل جارف أودى بحياة أمه العجوز دون حوث مقدمات،يقول السارد:وقد داهمهم السيل مستعملا سلاحه الأبدي نفسه:الغدر لم يلحظ أي إشارة تشير إليه السماء صحو منذ الصباح وعارية من الغمام،فشجعه ذلك للخروج إلى المراعي بالأغنام مبكرا وفي الليل أيضا لم يشاهد برقا ولم يسمع قصفا بعيدا للرعد"[3] كل ذلك جعل خطاب أسوف يتناص مع خطاب وصية والده التي كان يرددها دائما على مسامعه حتى يعقلها يقول السارد:الإنسان في الصحراء لا بد أن يموت بأحد النقيضتين:السيل أو العطش"[4]مما يعني أن علاقة البدوي ببيئته الصحراوية هي التوجس والخيفة والترقب ذلك أنه يستعمل كل الوسائل من أجل تطويع البيئة الصحراوية في متناوله لكنها تتأبى للإنقياد له كلية فتستجيب أحيانا له وتفاجئه أحيانا أخرى.وفي مقابل المتناصات السوسيولوجية هناك أنساق المتناصات الأخلاقية منها تمفصلات خطاب الكرم إذ تحيلنا الرواية على هذه السمات الأخلاقية المتوارثة من أهالي الصحراء والتي تجذرت فيهم صفة الكرم والجود،ذلك أن المجتمع الصحراوي يفرح بقدوم الضيف على اعتبار أن هذا الخير له من القدسية والتقدير ماله في عاداتهم و أعراقهم حيث يضطر الرجل الصحراوي إلى إلغاء كل المواعيد والأسفار التي يكون قد سطرها وبرمجها في ذلك اليوم ومن ثم فإنه من خوارم المروءة أن ينزل الضيف ويقدم صاحبها على رحلة وهو الأمر الذي حصل مع عائلة أسوف يقول السارد:لم توقظه هرجة الحركة ولملمة الأواني والصحون أيقظته مشادة حامية بين الام

---

[1] سعد عبد الله الصويان.الصحراء العربية ثقافتها وشعرها عبر العصور.الشبكة العربية للنشر.لبنان.2010.ص:44

[2] ابراهيم الكوني.نزيف الحجر.ص:24

[3] ابراهيم الكوني.نزيف الحجر.ص: 79

[4] الرواية.ص:79

والأب عرف أن الخلاف أثارته تلك الرحلة المفاجئة إذ رأت الوالدة التي تقيم وزنا كبيرا كبيرا للعار والعيب وآراء الناس في استفزاز لضيوف الوادي الجدد وعيب في حقهم"[1]مما يعني أن أهالي الصحراء في إكرامهم للضيف يعد واجبا أخلاقيا وهو ما تناص مع خطاب العجوز التي بقيت محافظة على هذا الخلق الذي لا يتنافى مع عاداتهم وتقاليدهم.

خامسا/شعرية تناص النسق الديني في نص الرواية:

يعني التناص الديني تلك النصوص الدينية التي تتداخل مع النصوص الإبداعية نفما من مبدع إلا وتجده يوظف التناص سواء أكان عن قصد أو عن غير قصد منه،فالديانات السماوية وبخاصة منها الدين الإسلامي التي تعد مغروسة في ذاكرة الكبير و الصغير منا ذلك أن البشرية جمعاء تتمثل تعاليمه السمحة.

1/شعرية التناص في الخطاب القرآني:يعد الخطاب القرآني من أكثر الخطابات التي ينهل منها المبدعون لما له من جزالة وقوة اللفظ وصحة المعنى بحيث أمدهم بمختلف التوجيهات التي تقوي انتاجاتهم وتزيدها رونقا وجمالا فهو المرجعية الأبدية التي تمنح نصوصهم شعرية وجمالية فذة من التمثلات التناصية التي يعتمدها المبدعون،فخطاب نص الرواية حافل بهذا النوع من التناصات من قصص ومواعظ وآيات وغيرها ومنها على الخصوص الافتتاحية التي جاءت على لسان السارد في قوله تعالى:وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير في السماء إلا أمم امثالكم"[2]والتي تمفصلت كنسق تناصي مع سورة الأنعام"لذلك فإن عملية الاستهلال بآيات من القرآن كانت لها قصدية متميزة لدى الكوني والتي تمثلت في إبراز التساوي بين الكائنات الحية جميعا،وهذا ما أكده الفصل الأول من الرواية المعنون بالرواية"الأيقونة الحجرية"والذي يتضمن قصة تحول أسوف عن القبلة–عن طريق الخطأ–نحو الصنم الحجري وقد تجلى في نماذج عدة منها ما جاء في قول السارد:قطع صلاته ولعن الشيطان وذهب ليؤدي الفريضة في مواجهة أهم صخرة في وادي متخندوش"[3]ولعل ما يلاحظ

[1] ابراهيم الكوني.نزيف الحجر.ص: 24
[2] الرواية.ص:7
[3] ابراهيم الكوني.نزيف الحجر.ص:5

على خطاب نص الرواية تجلي فكرة الصلاة كونها تجسد العلاقة بين–سواء أكان مسلما أو مسيحيا–والله حيث يوضح لنا الروائي أن الأديان كلها تشترك في نسيج واحد وتتمثل بأوجه عدة في الرواية:الإسلامية والمسيحة حيث التعبد والقصد للسياحة والوثنية حيث السجود لأحجار الوادي ورسومه وتجسدت في الرواية على النحو التالي:خروج قابيل على طبائع الناس المألوفة فهو لا يأكل إلا اللحم وكأنه يعيد تشكيل أسطورة قتل هابيل لكنه يعود لحم أسوف في آخر الرواية مازجا بين الإنسان وروح الجبال.أو كخروج آخر للمسيحيين عندما يسجدون للمخلوقات والرسوم القديمة وكان هذا الخروج كامنا في المسيحية نفسها،أو أن التعبد لا يصح إلا بوجود كيان مادي حسي ملموس يقول السارد:رأى في إحدى المرات امرأة أوروبية تركع أمام الصخرة على ركبتيها وتتمتم بكلام مبهم عرف بالحدس أنه صلوات النصارى"[1]لذلك فّإن خروج أسوف من دينه الإسلامي وذلك عندما آمن بوجود قوى خفية في الجن وفي الحيوانات – الودان–قوى تمارس فعلها الخفي على البشر وعلى الحياة يقول السارد:التقط نفسا عميقا الجن،يا معشر الجن الطيب أين أنتم؟الصبر من لم يوهب هذه النعمة لا مكان له في الصحراء"[2]مما يعني أن خطاب نص الرواية تماثل في استحضار مختلف الديانات كمحاولة منه لإبقائها كإرث بشري يمكن استثماره.

2/شعرية التناص في نص التوراة:لقد استهل خطاب نص الرواية بتناصات من الكتاب المقدس– العهد القديم/سفر التكوين الإصحاح الرابع–جاء على قول السارد:وحدث إذ كانا في الحقل أن قابيل قام على هابيل أخيه وقتله فقال الرب لقابيل:أين هابيل أخوك؟فقال:لا أعلم هل أنا حارس لأخي؟فقال ماذا فعلت؟صوت دم اخيك صارخ إلى من الأرض فالأن ملعون أنت من الأرض التي فتحتفاها لتقبل دم أخيك من يدك..."[3] مما يعني أن هناك تمفصلا تناصيا سرديا استحضره خطاب نص الرواية والمتثل في قصة هابيل وقابيل وهي

[1] الرواية.ص:9
[2]الرواية.ص:66
[3] ابراهيم الكوني.نزيف الحجر.ص:5

مذكورة في كل الأديان،فاستدعى خطاب الرواية نص سرد حادثة القتل التي اقترفها قابيل في حقه هابيل وأعاد سبكها بأسلوبه في نص الرواية إلا أنه أحدث تغييرا على الأحداث والشخصيات في نصه الروائي فجسد حدث القتل على شخصية أسوف الذي رفض أن يدل قابيل على مكان الودان،وقد عمته نار حب أكل اللحم وجعلته يقتل من أجل اشباع رغبته وكذلك قتل أخته الغزالة التي ضحت بنفسها من أجله،كما يمكن التأكيد على أن الكوني استهل بعض فصول الرواية من الكتاب المقدس وهذا طبعا من أجل ان يكثف مختلف دلالات خطابه الروائي.

3/شعرية نسق تناص الخطاب الصوفي:معلوم أن الصوفية تمثل مذهبا/منهجا إسلاميا يتبعه العبد من أجل الوصول إلى مراتب عليا في تمثل العبادة ويحصل ذلك عن طريق الاجتهاد في العبادات واجتناب المنهيات لذلك أصبح التصوف:يشكل اتجاها فنيا وفكريا ومذهبا اعتقاديا يميزه عن غيره لدى الكثير من الناس"[1]وبناء عليه فقد تجلت التناصات في خطاب نص الرواية عبر تمثل خطاب الفلسفة الصوفية التي كانت على ممر العصور تشكل هيولة للمتصوف المتدين إذ تعد ظاهرة إنسانية مارستها البشرية عن تلك النفحات والشطحات التي تحل على المتصوف،لذلك يمكن التأكيد على أن الخطاب الصوفي يشكل أحد المكونات الجوهرية لسرديات الكوني وبخاصة في خطاب نص الرواية وبذلك عدا مظهرا واقعيا يشيع انتشاره في الصحراء لأنها المكان المناسب لظهوره،فهي تمثل فضاء خصبا لنمو هذا النمط من التدين الروحي الذي يماسه الأفراد كما الجماعات بحيث يقطعون صلتهم بملذات الحياة من اجل الوصول إلى المراتب العليا من التعبدنوعليه فقد تجلت في خطاب الرواية طريقتين في التصوف هما: الطريقة القادرية والطريقة التيجانية ،كما بين أنساق الصراع بينهما بسبب اتهام أتباع الطريقة القادرية لأتباع الطريقة التيجانية بالبدع،لإقدامهم في قمة الوجد على طعن صدورهم بالسكاكين،يقول السارد:الصوفيون الحكماء في الواحات هزوا رؤوسهم من الوجد،وألقوا بالبخور في النار"[2] أما في المقطع السردي المعنون بـ:العفيون"أين التقى"جون باركر"بأحد شيوخ

---

[1] عبد الحكيم خليل أحمد.الدلالات اللغوية في الثقافة الصوفية.حوليات الثراث.جامعة.مستغانم.ع14. 2014.ص:62

[2]ابراهيم الكوني.نزيف الحجر.ص:84

القادرية الذي اتهمه الأهالي بالدروشة والزندقة حيث رافق"جون"إلى حفلة مزق فيها المجذبون وجوههم وصدورهم ولوحوا بالسكاكين في غيبة الوجد قال السارد:انظر إلى زنادقة التيجانية كيف يخترعون البدع ويسيؤون إلى التصوف الإسلام"[1]هذا ما يعني أن طرق الصوفية في شمال إفريقا تعيش التمزق والصراع وعلى كل المستويات.وفي السياق نفسه تجلى فعل المتناصات على مستوى الإختلاف بين خطاب الإسلام وخطاب المسيحية وبخاصة في قضية"الحلول"ذلك

أن هذه الخيرة حصرته في مخلوق واحد في حين أن القادرية حصرته في أنه موجود في كل الكائنات والموجودات يقول السارد كخلافنا معكم يا معشر المسيحيين يكمن هنا أنتم تقولون إن المسيح هو الله وتحصرون جلالته في مخلوق واحد في حين أنه موجود في كل الناس بل في كل الكائنات ديننا أعدل من دينكم"[2]كما خصص لهذه الظاهرة مقطعا سرديا عنونه بـ:التحول"وأشار إليه بظاهرة"حلول الروح"ليؤكد فكرة خطابه والمتمثل في حماية البيئة الصحراوية من الصيد العشوائي في الصحراء الكبيرة يقول السارد عن حلول الودان في جسد والد أسوف:لقد حل الأب في الودان،والودان حل فيه هو المرحوم والودان العظيم الآن شيئ واحد لن يفصل بينهم شيء"[3]كما تناص خطابه مع خطاب–راقد الريح–عن تحول الودان إلى جسد أسوف حيث قال السارد:حدث ما تناقله الأهالي ونسجوا حوله الأساطير روى لهم الشباب،فقالوا إنهم رأوا المعجزة الأولى مرة في حياتهم شاهدوا إنسانا يفات من الأسر ويتحول إلى ودان"[4]مما يعني أن أسوف ارتقى إلى ولي من أولياء الله الصالحين وهنا نزعة الكوني الصوفية عبر توظيفه للمتناصات ذات الطبيعة الصوفية والتي تمفصلت في نص الرواية منها كالحلول،البرزخ،الوجد هذا الأخير ركز عليه باعتباره مصدر القوة والمعرفة الإلهية عند المتصوفة.ونمه يمكن التأكيد على أن الخطاب الصوفي تمفصل وبشكل بارز في نص خطاب الرواية ذلك أن الفضاء الصحراوي بالنسبة للكوني هي رمز النقاء والصفاء من كل دنس بحيث أن الإنسان في اتصال مستمر مع الطبيعة وعناصرها المختلفة النباتية والحيوانية،فالشخصية

[1] الرواية.ص:117
[2] ابراهيم الكوني.نزيف الحجر.ص: 18
[3] الرواية.ص:75
[4] الرواية.ص:83

المحكوم عليها بالموت–أسوف–كاضحية تجلي الخير والبركات والنقاء والطهارة من الدنس والخطيئة إلى البيئة الصحراوية فيسقط الغيث وتتصالح الصحراء الجبلية مع الصحراء الرملية كما تقول الأسطورة التي تجلت على لسان خطاب السارد:انا الكاهن الأكبر متخندوش ،أنبيء الأجيال القادمة أن الخلاص من سيجيء عندما ينزف الودان المقدس ويسيل الدم من الحجر تولد المعجزة التي ستغسل اللعنة تتطهر الأرض ويغمر الصحراء الطوفان"[1]

الخلاصة:

لعلنا من خلال هذه الدراسة التي ارتكزت على تحليل شعرية التناص في الخطاب السردي الليبي المعاصر و هذا من منظور التفاعل التناصي السردي الصحراوي القائم على استرتيجية سوسيو تناصية تأخذ على عاتقها فهم وتفسير هذه الشعريات الحوارية اللغوية والنصية والصحراوية في ثنايا نص"الكوني " الذي اتخذ الطبيعة الصحراوية كسمة بارزة في إبداعاته السردية المعاصرة ،لذلك يمكن القول أن التفاعل التناصي مع مختلف العناصر التراثية وغير التراثية والمادية وغير المادية قد أخذ حيزا كبيرا في مدونته السردية مما يحيلنا على حضور الهوية الإسلامية والعربية والوطنية الليبية التي أراد"الكوني"تبني خطابها من أجل إنتاج خطاب حواري سردي ديموقراطي لا يشوبه تسلط ولا سلطة،بالإ

ضافة إلى تفاعل نصوصه مع حيز الذاكرة العربية والإسلامية وغير الإسلامية من منطلق تأكيد الهوية القائمة على إثبات الذات الليبية المبدعة مع الرفض المطلق للإنصهار ضمن كون الآخر ،بالإضافة إلى تثبيت الذوق الأدبي السردي الممتاز من خلال عمليات الإمتصاص السردي العربي ،كما أن نصوصه بقيت قائمة على مرجعيات سوسيوبيئية–صحراوية– جعل التناص ذي الطبيعة الفضائية حاضرا مع خطاب الهوية المجتمعية الليبية وكذا خطاب الشعرية التناصية لبنص الرواية و خطاب الشخصيات الأسطورية و الدينية

[1] الرواية.ص:147

والتاريخية من منظور التناصات السردية على مستوى اللغة والدلالة والوعي في نص خطاب رواية" نزيف الحجر"لابراهيم الكوني.

ثبت المراجع:

-ابراهيم الكوني.نزيف الحجر.دار التنوير للطباعة والنشر.ط3.بيروت.1992.

- سعد عبد الله الصويان.الصحراء العربية ثقافتها وشعرها عبر العصور.الشبكة العربية للنشر.لبنان.2010

- عبد الحكيم خليل أحمد.الدلالات اللغوية في الثقافة الصوفية.حوليات الثراث.جامعة.مستغانم.ع14. 2014.

- عبد القادر الفيتوري.أعلام من ليبيا.-الكوني-الجزيرة-2008-

- عبدالقادر بقشي.التناص في الخطاب النقدي و البلاغي.إفريقيا الشرق.ط1.المغرب.2007.

- ميرسيا إلياد.الأساطير والأحلام.تر:حسيبة كاسوحة.د.ط.منشورات سوريا.2004

-ابراهيم الكوني.نزيف الحجر.دار التنوير للطباعة والنشر.ط3.بيروت.1992.

-احمد الزعبي.التناص نظري وتطبيقيا.مؤسسة للطبع والنشرط2.عمان.2000.

-عبد القادر زيادية.دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب.د.مج.الجزائر.د.ت

-نبيلة ابراهيم .أشكال التعبير في الأدب الشعبي.دار غريب للطباعة .القاهرة.د.ت.ص